دراسة في مباني نظرية التأويل عند الإسماعيلية

الدكتور مصطفى فقيه اسفنديارى (الكاتب المسؤول)
أستاذ مساعد، الجامعة الرضوية للعلوم الإسلامية، إيران
rahigh504@gmail.com
السيد موسوي بايگي
أستاذ مساعد، الجامعة الرضوية للعلوم الإسلامية، إيران
mmusawy@gmail.com
سليمان سليمان
طالب دكتوراه، فرع الفلسفة الإسلامية، الجامعة الرضوية للعلوم الإسلامية، إيران
solayman.8@gmail.com

A study in the foundations of the theory of taʾwīl of the Ismailis

Dr. Mustafa Faqih Esfandiari (responsible writer)
Assistant Professor , Razavi University of Islamic Sciences , Iran
Sayed Muhammad Mousavi Baighi
Assistant Professor , Razavi University of Islamic Sciences , Iran
Suleiman Suleiman
PhD Student , Islamic Philosophy Branch , Razavi University of Islamic Sciences, Iran

الملخص:-

اهتمت الإسماعيلية اهتماما واسعا بمقولة التأويل؛ وانطلاقا من هذه الأهمية يغدو من الضروري لفهم العقيدة الإسماعيلية الإجابة عن الأسئلة التالية: ما هي مكانة ودور التأويل في المذهب الإسماعيلي وما هي أدلة وجوبه عندهم، وما هي نطاقات التأويل، وهل العلم التأويلي علم سري فإذا كان كذلك فما هي شروط كشفه وإذاعته للناس، وما هي الأسباب هذه السرية. وما هي العلاقة بين الظاهر والباطن وما هي نظرتهم للظاهر. حاولنا في هذا البحث المعد وفق المنهج الوصفي التحليلي تقديم إجابات عن الأسئلة المطروحة آنفا، وتعدّ هذه الإجابات مجرد إشارات ومفاتيح تمهد للخوض تفصيلا في جزئيات الموضوع. وقد لاحظنا وجود دور هائل ومؤثر للغاية للتأويل في الفكر الإسماعيلي، وهو تأويل لا يقتصر على النصوص الدينية والانتقال من ظاهرها إلى باطنها؛ بل يشمل جميع ما يتعلق بالدين من عبادات وتشريعات وأحكام، وجميع ما هو موجود في هذا الكون، فلكل شيء تأويل وباطن، كما لاحظنا حرص الدعاة على سرية المعارف التأويلية واشتراط شروط خاصة في تقديمها للآخرين، وأشرنا إلى بعض الاحتمالات التي يمكن أن تكون سببا في هذ السرية، كما أشرنا إلى أهمية الظاهر في الفكر الإسماعيلي وضرورة الإيمان والعمل به كما يصرح كبار دعاتهم، ولاحظنا بتحليل أدلة وجوب التأويل أنها تقصر عن إثبات التأويل الذي اختصوا به تثبت الباطن والتأويل المقبول عند أكثر المسلمين.

الكلمات المفتاحية: التأويل، الظاهر والباطن، الإسماعيلية، الباطنية، المثل والممثول.

Abstract:-

The Ismailis paid great attention to the concept of taʾwīl (Esoteric interpretation). It was of very great importance in their doctrine, and based on this importance, it becomes necessary to understand the Ismaili faith to answer the following questions: What is the place and role of taʾwīl in the Ismaili doctrine, what are the evidences for its obligation, what are the scopes of taʾwīl, and is hermeneutic science a secret science, and if so So what are the conditions for revealing it and broadcasting it to people, and what are the reasons for this secrecy? What is the relationship between the "exoteric"(zahīr) and the esoteric(batin), and what is their view of the "exoteric"(zahīr).

In this research prepared according to the descriptive analytical method, we tried to provide answers to the questions raised above,. We have noticed that there is a huge and very influential role for taʾwīl in Ismaili thought, and it is an taʾwīl that is not limited to religious texts and the transition from its surface to its interior. Rather, it includes all that is related to religion in terms of acts of worship, legislation, and rulings, and all that exists in this universe, for everything has an taʾwīl and an exoteric meaning. We have also noted the preachers' keenness to keep interpretive knowledge secret and stipulate special conditions in presenting it to others, and we have pointed out some possibilities that could be the cause of this secrecy, as we have pointed out the importance of the "exoteric" in Ismaili thought and the necessity of faith and action in it as their senior preachers declare, and we have noted by analyzing the evidence for the necessity of taʾwīl It falls short of proving the taʾwīl that they specialize in proving the esoteric and the accepted taʾwīl of most Muslims.

Key words: taʾwīl , exoteric and esoteric, Isma'ilism, Batiniyya.

المقدمة:

تعد الإسماعلية كما هو معروف واحدة من أهم الفرق الإسلامية، والتي كان لها دور كبير ومميز في التاريخ الإسلامي سياسيا وفكريا واجتماعيا، وعند دراسة البعد الفكري والعقائدي لهذه الطائفة؛ المتفرعة عن المدرسة الشيعية الأم؛ لا بد أن نركز على منطلق ومرتكز أساس أثّر تأثيرا بالغافي تطور النهج العقدي والثقافي لأتباع الإسماعيلية، وشكل الهيكلية العامة والبنية الجوهرية لخطي مشيها العلمي، ولسنا نقصد هنا إلا مقولة التأويل والباطن والظاهر التي يمكن القول أنها أبرز ما يميز الفكر الإسماعيلي بعد موضوع الإمامة.

عند الحديث عن التأويل في الإسماعيلية نجد أمامنا الكثير من الأسئلة الجوهرية المتشعبة، والتي يتطلب الإجابة عن كل واحد منها أبحاثا مستقلة؛ بل ربما كتبا كاملة؛ إلا أننا نحاول هنا الإضاءة على بعض جوانبها، واستكشاف نذر يسير من خباياها وزواياها، ومن هذه الأسئلة ما هي مكانة ودور التأويل في المذهب الإسماعيلي؟ وما هو ما هي أدلته وجوبه كما يعدها ويقدمها علماء هذه الفرقة؟ كما نسأل عن نطاقات التأويل وما هي الأمور التي يشملها، وعن شروط كشفه وإذاعته للناس، وعن الأسباب التي دعت دعاة الطائفة ليجعلوه سريا. ومن الأسئلة والموضوعات الهامة للغاية مسألة العلاقة بين الظاهر والباطن، وما هي نظرة الإسماعيليين للظاهر أي ظاهر الشرع والنصوص؛ بل ما هي نظرتهم الكونية إلى ظاهر هذا الوجود.

لا يحتاج القارئ للتراث الإسماعيلي إلى كثير جهد ليدرك ويكتشف الدور المحوري الذي يؤديه التأويل في فكر هذه الفرقة، ولكن الأمر اللافت للانتباه هنا أن التأويل لا يقتصر كما هو المتعارف على تأويل النصوص والانتقال من ظاهرها إلى باطنها بل يتعاده ليشمل كل ما يمت للدين بصلة من شرائع وأحكان وعبادات ومناسك مضافا إلى تأويل النصوص، ويتجاوز ذلك ليصل إلى تأويل كل ما هو موجود في الكون، وهنا يبرز دور نظرية المثل والممثول ذات الشأن العظيم عند علماء الإسماعيلية، ولقد قدم الإسماعيليون أدلة وبراهين نقلية وعقلية في محاولة إثبات ضرورة التأويل ووجوبه، ونلاحظ وجود مبدأ السرية في نشر التعاليم والمعارف الباطنية التأويلية وعدم جواز نشرها وإذاعتها بين العموم، واشتراط نقلها للآخرين شروط صعبة وعهود موثقة، ويتبادر هنا إلى الذهن على الفور سؤال عن سبب

مثل هذه السرية وعن مدى تعارضها مع قضية بديهية تقول أن الدين إنما هو لهداية الناس وإرشادهم إلى الحق مما يستلزم الإبانة والإفصاح والتصريح، كما تؤكد على هذا التصريح والإبانة آيات كريمة وروايات شريفة متعدة، لا بد من وجود أسباب وبواعث قوية دفعت مفكري الإسماعيلية لتبني مبدأ السرية؛ فهل هي التقية السياسية وهم المحارَبون في كل زمان، أم أنها كانت تقية علمية، أم كان هناك أسباب أخرى، وطالما أن الإسماعيليين اشتهروا ومنهجهم الدعوي المميز المتسم بالقوة والتنظيم؛ والذي يعني عرض الآراء على الآخرين كمقدمة لدعوتهم إلى تبني الفكر والمذهب الإسماعيلي فما هي الشروط التي وضعوها لكشف غطاء السرية عن معارفهم الباطنية، وما هي الطقوس والدساتير المتبعة في هذا الإطار، يقول الباحث الإسماعيلي مصطفى غالب حول دور التأويل عند هذه الفرقة بعد أن قدم خلاصة لأهم عقائدهم: "وقد دعموا هذه المعتقدات بنظريات فلسفية وتأويلات باطنية، إما اكتسابا أو استنباطا، فأصبحت الفلسفة بنظرهم وسيلة لتقييم العقيدة، وطريقا إلى تكشف جوهر الخلق والدين، ونادوا بوجوب التأويل الباطن، لأنه من عند الله، خصّ به عليا بن أبي طالب، كما خصّ الرسول بالتنزيل، واستدلوا على ذلك بقصة موسى a مع الرجل الصالح المذكور في سورة الكهف، وعمدوا إلى إحاطة علوم الباطن بالستر والكتمان، وحظروا إظهارها إلا لمن يستحق ذلك فقط، واعتبروا التأويل الباطن نظرية دينية فلسفية تتلخص في أنّ الله سبحانه وتعالى جعل كلّ معاني الدين في المخلوقات التي تحيط بالإنسان، لذا يجب أن يستدل بما في الطبيعة، وبما على وجه الأرض، على إدراك حقيقة الدين، وقالوا أن المخلوقات قسمان: قسم ظاهر للعيان، وقسم باطن خفي، فالظاهر يدل على الباطن، وما ظهر من أمور الدين من العبادة العملية، وما جاء في القرآن هي معاني يعرفها العامة، ولكن لكل فريضة من فرائض الدين تأويلا باطنا لا يعلمه إلا الأئمة وكبار حججهم ودعاتهم وحدودهم"[١].

التأويل في اللغة والاصطلاح

التأويل لغة معناه الإرجاع، وآل يؤول أي رجع، والتأويل من الأول وهو الرجوع قال ابن منظور "الأول: الرجوع، آل الشيء يؤول أولا ومآلا: رجع، وأول إليه الشيء: رجعه"[٢].

أما في الاصطلاح فمن أفضل تعاريف التأويل ما أورده الراغب الأصفهاني في كتابه

المفردات إذ قال: "التأويل من الأول أي الرجوع إلى الأصل ومنه الموئل للموضع الذي يرجع إليه وذلك هو رد الشيء إلى الغاية المرادة منه علما كان أو فعلا، ففي العلم نحو: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[٣].

ويقدم العلامة الطبطبائي في تفسيره الميزان ما اختاره من رأي في التعريف الاصطلاحي الصحيح للتأويل، بعد أن يعرض لمختلف الآراء في هذا الشأن، يقول: "إذا عرفت ما مر علمت أن الحق في تفسير التأويل أنه الحقيقة الواقعية التي تستند إليها البيانات القرآنية من حكم أو موعظة أو حكمة، وأنه موجود لجميع الآيات القرآنية محكمها ومتشابهها، وأنه ليس من قبيل المفاهيم المدلول عليها بالألفاظ بل هي من الأمور العينية المتعالية من أن يحيط بها شبكات الألفاظ، وإنما قيدها الله سبحانه بقيد الألفاظ لتقريبها من أذهاننا بعض التقريب؛ فهي كالأمثال تضرب ليقرب بها المقاصد، وتوضح بحسب ما يناسب فهم السامع"[٤].

وهذا التعريف كما هو واضح يقتصر على تأويل نص القرآن الكريم، في حين أنّ الراغب الأصفهاني ذكر في تعريفه مضافا إلى تأويل القول تأويل الأفعال والأعمال، ونحن عندما نتحدث عن العقائد الإسماعيلية سنلاحظ شمولية هذا المصطلح عندهم، وسرايته إلا غير النصوص وهو المتعارف المشهور من معنى التأويل.

أما معنى التأويل عند الإسماعيلية فلبيانه ننقل هنا ما أورده الباحث المتخصص في التراث الإسماعيلي فرهاد دفتري في كتابه معجم التاريخ الإسماعيلي: "التأويل تعبير تقني يدل على استنتاج المعنى الباطني أو الأصلي من التعبير الحرفي لنص، أو طقس، أو فريضة دينية. وحيث أنه تعبير تقني لدى الشيعة ولاسيما الإسماعيليين منهم؛ فإنه يدل على الطريقة والأسلوب المستخدم في استنتاج الباطن من الظاهر، أو استخراج المعنى الباطن من التعبير الظاهر؛ وبهذه الدلالة استخدمه الإسماعيليون على نطاق واسع في التفسير المجازي أو الرمزي أو التأويلي للقرآن والشريعة والأحداث التاريخية، وحتى لعالم الطبيعة. وبترجمته في صورة تفسير ديني أو تأويلي يمكن تمييز التأويل عن التفسير، الذي هو تفسير ظاهري لغوي أو شرح للقرآن"[٥].

ويتابع فرهاد شارحا التوظيف الإسماعيلي للتأويل وأسلوبهم في ذلك: "وأصبح التأويل ميزة للفكر والأدب الإسماعيليين، وغالبا ما اعتمد؛ بالشكل الذي مارسه فيه

الإسماعيليون الأوائل؛ على الخصائص الباطنية للحروف والأعداد ورمزيتها. وكان الغرض من التأويل؛ المسمى أيضا بالتأويل الباطني أو تأويل الباطن؛ إظهار ما هو مستور أو مخفي بحيث يتم الكشف عن الحقيقة الروحية الصحيحة فقط لأولئك الذين تم تلقينهم ودخولهم في الجماعة الإسماعيلية بصورة صحيحة ومناسبة، والذين يقرون بالهداية الروحية لإمام كل عصر الذي هو صاحب التأويل؛ أي الذي يملك السلطة الحقيقية لتفسير الإسلام بأبعاده كافة".

مكانة التأويل في الفكر الإسماعيلي:

إنّ الباحث في تاريخ الإسماعيلية وعقائدها يجد أمامه جليا واضحا الدور الكبيرة والمكانة الأساس للتأويل في الفكر الإسماعيلي وفي جوهر بنيان هذا المذهب، وهذا ما يصرح به الباحث في التراث لإسماعيلي مصطفى غالب الذي يقول: "على ضوء ما استوعبناه خلال دراستنا الطويلة لكافة النصوص المطبوعة والمخطوطة التي تبحث في أصول معتقدات الإسماعيلية يمكننا أن نعتبر التأويل ونظرية المثل والممثول المدماك الذي ترتكز عله أسس العقائد الباطنية الإسماعيلية، فهو بمثابة الشريان الحيوي إلى يمدّ الأفكار الفلسفية العقلانية التعليمية بالتجدد والتطور نحو الأكمل والأمثل ويفتح مغاليق النفس العاقلة إلى دنيا زاخرة بالمعرفة والكوامن الفلسفية، وبما يفجر من طاقات روحانية في عالم النفس، ويغذي الفلسفة الباطنية بالحكم والمنطق والبيان"(٦).

وإلى هذه الحقيقة يشير الباحث الإسماعيلي عارف تامر موضحا أن المصدر الأساس للمباني والأفكار الفلسفية والحكمية التي تبناها حكماء الإسماعيلية وفلاسفتها إنما هو التأويل: "لقد كان التأويل في عهد الدعوة الإسماعيلية المبكر، وفي أبان ازدهارها الموضوع الأساسي لكل فكرة فلسفية باطنية، والشجرة التي نمت وترعرعت ثم تفرع منها الكثير من الأغصان، أو بلغة أصح الأساس الذي تركزت عليه دعائم هذه الدعوة الفكرية، والغذاء الذي موّن الفلسفة الباطنية بالحكم والمنطق والبيان"(٧).

إنّ للتأويل مكانة مرموقة ودورا مصيريا في بناء وهيكلية هذه الفرقة، بحيث لو نظرنا إليها منفصلة عن تأويلاتها لما وجدنا ما يميزها تمييزا ذا شأن عن باقي الفرق الإسلامية ولا سيما الشيعية منها، يقول جعفر السبحاني: "إنّ تأويل الظواهر وإرجاعها إلى خلاف ما

يتبادر منها في عرف المتشرعة هي السمة الثانية البارزة للدعوة الإسماعيلية، وهي إحدى الدعائم الأساسية بحيث لو انسلخت الدعوة عن التأويل واكتفت بالظواهر لم تتميز عن سائر الفرق الشيعية إلا بصَرف الإمامة عن الإمام الكاظم(ع) إلى أخيه إسماعيل بن جعفر، وقد بنوا على هذه الدعامة مذهبهم في مجالي العقيدة والشريعة، وخصوصا فيما يرجع إلى تفسير الإمامة وتصنيفها إلى أصناف"(٨).

والسؤال المهم هنا ما هي العوامل والأسباب التي جعلت للتأويل مثل هذه الأهمية الفائقة عند الإسماعيلية؟ وهل يمكن اعتبار هذا المنهج التأويل الباطني أمرا إيجابيا ومن نقاط قوة المذهب أم على العكس من ذلك؟

وهذا الاهتمام الوافر بالتأويل والباطن عند الاسماعيلية لا يعني انصرافهم عن الظاهر وإهمالهم له؛ بل إن نهج كبار علمائهم والصحيح في أصل معتقداتهم هو الدعوة إلى الالتزام بالظاهر كما الباطن ولو كان الثاني عندهم أكثر أهمية ورجحانا، وهذا ما نجده في كتب كبار الدعاة والحكماء الإسماعيلية وفي تحقيقات الإسماعيلية المتأخرين ومنهم مصطفى غالب الذي يقول: "ومن هنا نستنتج أنّ العقيدة الإسماعيلية تفرض على الأتباع أن يعملوا بمبدأي الظاهر والباطن معا، باعتبار أنهما يؤلفان روح الدين، وهما متصلان ببعضهما البعض، ومرتبطان تمام الارتباط وواجبان على كلّ إسماعيلي مؤمن.... فالظاهر هو المفهوم العام للتوصيات المتعلقة بقواعد علم الدين، والباطن هو جوهر الدين المستور عن الأنظار، والمخصص للألباب ولهذا ذهب الإسماعيلية إلى تكفير من اعتقد بالباطن دون الظاهر أو بالظاهر دون الباطن"(٩).

وفي ذلك يقول داعي الدعاة المؤد في الدين: "من عمل بالباطن والظاهر معا فهو منا، ومن عمل بأحدهما دون الآخر فالكلب خير منه وليس منا"

وجوب وضرورة التأويل:

نظرا للدور الجوهري الذي يضطلع به التأويل في المذهب الإسماعيلي، فهو ركيزة أساس في بنيان هذا المذهب كما أسلفنا، فكان لا بدّ من اهتمام علماء الإسماعيلية وكبار دعاتها بتقديم الأدلة والبراهين العقلية والنقلية التي تثبت وجوب التأويل وتبرهن على ضرورته؛ فإثباته إثبات لحقانية المذهب كما يرون، وفيه رد على إشكالات وحملات مخالفيهم التي تركز

بطبيعة الحال على الأصول والمباني الأساس في المذهب، والتأويل أحدها.

لإثبات وجوب وضرورة التأويل لا بدّ أولا من إثبات مادته، أي الباطن؛ باطن النصوص الشرعية وباطن الخلق والكون، وانطلاقا من إثبات وجود الباطن وأهميته وأنه أهم وأشرف من الظاهر، وحقيقة عبثية العمل بالظاهر دون معرفة الباطن، بالتالي يغدو وجود التأويل جليا واضحا فهو يعني اكتشاف هذا الباطن وإدراك معانيه أي الوصول إلى الحق والحقيقة، ونيل الغاية في المقاصد الشرعية والدينية.

يقول الشاعر والداعي الإسماعيلي الشهير ناصر خسرو في كتابه وجه الدين المصنف لبيان باطن الشريعة وتأويلها:

"الكتاب والشريعة كالجسدين والمعني والتأويل كالروح لهاذين الجسدين، وكما أنّ الجسد لا قيمة له بلا روح فإن الكتاب والشريعة بلا تأويل ومعنى لا مقدار لها عند الباري تعالى، كما روي عن الرسول عليه وآله الصلاة والسلام: إن الله أسس دينه على أمثال خلقه ليستدل بخلقه على دينه وبدينه على وحدانيته...ولأنه من الواضح في خلقة العالم أنّ باطن الأشياء أشرف من ظاهرها وأنّ قوام ظاهر كلّ شيء بباطن ذلك الشيء يلزم من ذلك أنّ باطن كلام الباري تعالى وشريعة الرسول أشرف من ظاهره، ومن لا يعلم الباطن لا يعلم شيئا من الدين، والرسول منه بريء كما قال تعالى: ((فلا تكونن من الجاهلين)) ولا أجهل من شخص يعمل عملا لا يعلم معناه"[١٠].

وفي إثبات التأويل تبرز نظرية المثل والممثول التي تبناها حكماء الإسماعيلية، ولا شك أنها مقتبسة من نظرية المثل الأفلاطونية، وملخصها أنّ لكل ظاهر باطنا، والأول هو المثل، والثاني هو الممثول، يقول الداعي جعفر بن منصور اليمن وهو أحد كبار دعاة الإسماعيلية: "وكلام الله وتنزيله لا يحمل على ظاهر لفظه، إذا الظاهر ربما لا يكون له معنى ينصرف إليه إلا من وجه تأويله وباطنه، إذ كلام الله أمثال تدل على ممثول، وقصص ماضية تدل على ما هو آت... ورموزات وإشارات جعل أوليائه القائمين والعالمين لها ومبينين تأويلها وحقيقتها ليتدبر من تدبر، ويزدجر من تفكر، ويكون على بينة من أمره من ذكر، إقامة بحجته، ودالة على براهينه، استخبارا وامتحانا، واستبصارا وابتلاء"[١١].

وعللوا ضرورة التمثيل بأنه يأخذ بيد الإنسان في فهم الدين وحقائق الوجود "قالوا أنه سبحانه وتعالى جعل كل معاني الدين في المخلوقات التي تحيط بالإنسان ليستدل بما في الطبيعة وبما على وجه الأرض على فهم حقيقة الدين"(١٢).

وأوضح دعاة الإسماعيلية أنّ الظهور والبطون في هذا الأشياء ذاتي ولا مدخلية لعلمنا بها في كونها باطنة أو ظاهرة؛ فبعد علمنا بالظاهر يبقى ظاهرا وبعد علمنا بالباطن يبقى باطنا، وهذا ما يشير إليه الفيلسوف الإسماعيلي الكبير حميد الدين الكرماني بعد تأكيده على ثنائية الباطن والظاهر لكل موجود في هذا العالم "إنّ الأشياء كلها على ما هي عليه في أعيانها شيئان: شيء محسوس ظاهر الذات يدركه البشر بحواسه، من غير أن يكون كونه ظاهر الذات متعلقا بحواس البشر... مثل العالم بجميع ما فيه الذي هو ظاهر الذات... أو شيء خفي باطن لا يدركه البشر (إلا) بعقله وعلمه لا بحواسه من غير أن يكون باطنا خفيا متعلقا بعلم البشر...بل هو في ذاته خفي باطن علمه البشر أو لم يعلمه، مثل الآخرة والمعارف المتعلقة بالعقول من حدوث العالم ووجوب الصانع التي هي باطنة خفية"(١٣).

وقد جاء حميد الدين الكرماني بمجموعة من البراهين العقلية والنقلية في رسالته "الكافية" والتي كتبها ردا على مقالة شخص باسم أبي الحسن الهاروني الذي أجاب عن أسئلة حول عقائد الإسماعيلية أنكر فيها وجود الباطن، وقال أنه من المعلوم أن دعوة النبي i لم تكن إلا إلى هذه الظواهر.

وهنا نورد خلاصة ومفاد أجوبة الكرماني على الهاروني وأدلته على إثبات الباطن، وقد صدّر تلك الأدلة والبراهين ببيان معنى الباطن كما تعتقده الإسماعيلية؛ لافتا إلى أن من يعلم حقيقة مقصودهم من التأويل سيقبله بلا شك ويمتنع عن إنكاره.

يصرح الكرماني في رسالته الكافية أنّ المراد من الظاهر هو الأعمال والمناسك المفروضة في الشرع كالشهادتين والصلاة والصوم و... وهي أمور متى وجِدت أدركتها الحواس ويشترك في إدراكها كل ذي حس صحيح.

والمراد من الباطن هو العلم بوجود الشيء وبجميع ما يتعلق بهذا الشيء مما لا يدرك بالحواس بل هو معلوم بالعقول والأوهام والأنفس، من قبيل المعرفة بالتوحيد والرسالة والثواب والعقاب والحشر و... ولأنها باطنة لا يحصل الاشتراك في إدراكها بين الناس؛ بل

يختص بها قوم دون قوم على حسب الاكتساب.

وفيما يلي ملخص ما أورده الكرماني من أدلة إثبات الباطن في رسالته "الكافية"[١٤]:

الدليل الأول: لو كان حكم الباطن كحكم الظاهر، ويجري مجراه، بالتالي إذا علم أحد ما من هذه المعارف الباطنية شيئا شاركه غيره من الأشخاص هذا العلم، وعلموا ما علمه كما هو الحال في العلم الظاهر، والتالي باطل فالمقدم مثله، مثال: عندما يصدر صوت عبارة "بسم الله الرحمن الرحيم" يشترك في استماعها كل ذي حس، أما معنى هذه العبارة أي تأويلها فيختص بمعرفته من يعلم به لا من يسمعه.

الدليل الثاني: إثبات الظاهر والقول بوجوده يوجب ويستلزم إثبات الباطن، وذلك لأن الظاهر والباطن متقابلان تقابل التضايف، والتضايف هو نسبة بين أمرين وجوديين تعقل أحدهما مستلزم لتعقل الآخر بالضرورة، مثل العلو الذي يوجِب بوجوده السفل، والولد الذي يوجِب الوالد، فمن قال أنّ النبي i دعا إلى الظاهر فهذا إثبات منه لوجود الباطن.

دليل ثالث: يسأل الكرماني أبا الحسن الهاروني المخالف لوجود الباطن، هل دعا النبي i إلى توحيد الباري تعالى والإيمان بالرسل والكتاب والآخرة؟ لا بدّ أن يكون الجواب بنعم. فهل هذه أمور يدركها الحس أم أن إدراكها عمل متعلق بالنفس وهو باطن لا يدركه الحس؟ والجواب: باطن غير محسوس، فإذا كان باطنا والنبي دعا إليه فقد ثبت الباطن.

دليل رابع: نرى أنّ أعداد الصلاة مختلفة؛ لهذا الاختلاف سبب وهو ما وراءها من العلوم والإشارات، وإلا كان اختصاص العدد المعين بالصلاة المعينة ترجيحا بلا مرجح ولا أولوية له، وتلك العلوم والحكم هي التأويل. وكذا الأمر في أيام الصوم فلولا وجود معارف تدل على التوحيد لما كان افتراض الصيام في شهر رمضان أولى من افتراضه في شهر محرم مثلا.

دليل خامس: جاء في الحديث الشريف "طلب العلم فريضة" والعلم لو لم يكن باطنا خفيا بالذات لا يدرك إلا بالطلب والبحث لما أوجب طلبه، والعمل لما كان ظاهرا بالذات ويدرك بالحس بغير طلب لم يوجب طلبه بل أوجب عمله.

مجموعة من الأدلة الأخرى في إثبات التأويل والباطن أوردها الكرماني في كتابه

"المصابيح في إثبات الإمامة" مصرحا أنّ التأويل الذي يريد إثباته هو العلم، ونعرض هنا لبعض هذه الأدلة باختصار[١٥]:

الدليل الأول: العقول والأنفس لا تعلم بالمعاد وما غاب عن الحواس إلا عن طريق ما أبانه الرسل من أمثلة محسوسة، وقد وجب أن تتضمن هذه الأمثلة الحكمة وهي الباطن المقصود.

نرى في ظاهر بعض ما جاء في الشرع من آيات وروايات ما يخالف العقل ويمتنع عن قبوله مثال آية الذر فكيف يأخذ الباري سبحانه الميثاق من الذر، وفي الشرع لا يؤخذ بكلام الصبيان فما بالك بالأطفال لأنهم غير مكلفين ولا مؤاخذين. والمثال الآخر حديث "بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة" وهذا غير موجود ظاهرا؛ فلا بدّ لهذه الأقوال من معان توافق العقول وتقبلها وهي التي نسميها تأويلا باطنا إذاً التأويل واجب.

الدليل الثاني: يقول الكرماني أنّ النبي i دعا إلى الله سبحانه بالحكمة كما أمره الباري تعالى، ولكننا نرى أنه دعا أحيانا بأمور لا يعرف الحكمة فيها بل ظاهرها على خلاف الحكمة من قبيل مناسك الحج؛ فلا بدّ أن يكون وراءها معان حكمية توافق الحكمة وتدل العقول بمعرفتها على ما فيه نجاتها، وتلك المعاني هي التي نسميها دليلا وباطنا.

الدليل الثالث: من عدله سبحانه ألا يؤاخذ أحدا بجرم غيره ومن أحكام الدين أخذ العم بجرم ابن أخيه إذا قَتلَ خطأ فوجب أن يكون ذلك ومثاله لمعنى وحكمة تجانس عدل الله تعالى ورحمته من جهة العقول وهو الباطن والتأويل.

الدليل الرابع: يستحيل على الحكيم العاقل مخاطبة الموات التي لا حياة لها ولا ثواب ولا عقاب، وفي الآية الشريفة ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[١٦].

خاطب الباري سبحانه السموات والأرض، وهي موات لا عقل لها، فكان لأمره لها معنى فيه تحقيق قوله سبحانه، ويقبله العقل في الحكمة وهو التأويل فهو واجب.

الدليل الخامس: لا سبيل إلى تعريف ما لا يُرى ولا يُحس إلا بالعبارة عنه بما يرى ويحس؛ مثل تعبيره عليه السلام عن الجنة وهي غير مرئية بالبساتين والأشجار والثمار والمياه

و...وإذا لزم ذلك كان ما دعا إليه من الآخرة جاريا مجرى الأمثال في التشبيه، والأمثال تقتضي الممثلات والممثلات هي المُعبر عنها بالتأويل.

ومن الأدلة النقلية يمكن أن نشير إلى "قصة نبي الله موسى a مع الرجل الصالح وكيف أنّ موسى a وهو نبي مرسل من أولي العزم لم يمنحه الله علم الباطن بينما منح هذا العلم إلى الرجل الصالح وهو ليس بنبي مرسل وليس من أولى العزم"(١٧).

أصحاب التأويل

بعد أن ثبتت أهمية التأويل ومكانته عند الإسماعيلية، وبعد ما قدموه من أدلة وبراهين على ضرورته ووجوبه؛ يغدو من الضروري أن نعلم من هم أصحاب علم التأويل، فتحديدهم ومعرفتهم نابعة من أهمية المعرفة التأويلية نفسها، فنسأل هنا هل يمكن للجميع العلم بالتأويل، وهل يمكن إدراك المعارف التأويلية بالعقل، أم أنه علم وحياني يختص بالنبي والأئمة d وعلمهم اللدني الخاص يقول الباحث عارف تامر في مقدمة تحقيقه لكتاب أساس التأويل".....أما أسراره التأويلية الباطنية فقد خص بها عليا والأئمة من بعده وقد أخذ الإسماعيليون بعض آيات القرآن الكريم دليلا على القول بوجوب التأويل"(١٨).

"لقد قلنا أنّ التأويل وهو "المعرفة" كان مختصا بها "الإمام" وحواريوه، ولهذا السبب نرى النبي "محمد" يحرص على توصية أصحابه بأن يفتشوا عنها أينما وجدت"(١٩).

وهذا ما يشير إليه المحقق حسين كامل إذا يقول: "فقد ذهب الإسماعيلية إلى أنّ لكلّ شيء ظاهر محسوس تأويلا باطنيا لا يعرفه إلا الراسخون في العلم وهم الأئمة، وهؤلاء الأئمة يودعون هذا العلم الباطن لكبار الدعاة بقدر مخصوص..."(٢٠).

ويؤكد الباحث الإسماعيلي مصطفى غالب أنّ علم الباطن مختص بالأئمة من أهل بيت النبي i وأنّ أسرارها عندهم: "فجعل عز وجل ظاهره معجزة رسوله، وباطنه معجزة الأئمة من أهل بيته لا يوجد إلا عندهم، ولا يستطيع أحد أن يأتي بظاهر الكتاب غير محمد رسول الله i جدهم، ولا يأتي بباطنه غير الأئمة من ذريته... أما أسرار القرآن التأويلية الباطنية وإظهار معاني الرموز والإشارات فقد خصّ بها عليا والأئمة من بعده إلى يوم الدين"(٢١).

ومن الأدلة على أنّ أمير المؤمنين هو مصدر التأويل حديث "أنا مدينة العلم وعليّ بابها" وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾[٢٢].

ثم أنّ الإمام علي a كما يقول الإسماعيلية نقل ذلك العلم إلى ذريته الطاهرة الذين اصطفاهم الله تعالى لحمله حفظا وصحفا.

وفي منظومة على بن حنظلة الوداعي المسماة سمط الحقائق تصريح بأن إحدى مهام الأئمة هي تأويل ماء جاء به الناطق أي النبي.

وبعد كلّ ناطق وصي يخلفه منتجب مرضي

مبينا تأويل ما أتى به من سنة الله ومن كتابه"[٢٣]

نشر المعارف التأويلية

بعد أن علمنا أنّ الأئمة هم أصحاب العلم الباطني وتقتصر معارفه عليهم وهم يعطون الدعاة منه بقدر مخصوص، ولكن ماذا بالنسبة إلى عموم الناس أو لا أقل المنتسبين إلى المذهب الإسماعيلي، فهل يجوز لهم الاطلاع على المعارف الباطنية مطلقا أم لذلك قيود وشروط. انطلاقا من أهمية العلم الباطني وعمقه وضع دعاة الإسماعيلية وكبار علمائها شروطا صعبة في من يريد الحصول على هذه المعارف، والتي لا تمنح إليه إلا بعد أخذ العهود الموثقة بحفظ الأسرار وعدم الإذاعة إلا بإذن، يقول مصطفى غالب: "وهو علم متوافر بينهم ومستودع فيهم، يخاطبون كل قوم منه بمقدار ما يفهمون ويعطون كلّ أحد منه ما يستحقون، ويمنعون منه من يجب منعه، ويدفعون عنه من استحق دفعه"[٢٤].

"وعمدوا إلى إحاطة جميع العلوم الباطنية بالستر والكتمان، وحظروا إظهارها إلا لمن يستحق ذلك من أتباع الدعوة المخلصين الذين تدرجوا في مراتبها، وترفعوا في مناصبها وهم الطبقة المعروفة بالخاصة"[٢٥]

وفي نموذج آخر للسرية، والتشدد في نشر العلم الباطني يؤكد الداعي الوداعي في منظومته العقائدية أنها لا تعرض ولا تعطى إلا للمستحقين:

وهذه القصيدة المكنونة أمانة مذخورة مصونة

عن بذلها إلا لمستحق حظرتها على جميع الخلق

إلا بفسح من إليه الأمر فمن تعدى لا عداه الشر

يشترط هنا في منح هذه العلوم السرية الباطنية فسح من إليه الأمر، ويدعو بالشر على من لا يلتزم بذلك.

وفي تقسيم الدعاة عند الإسماعيلية نلاحظ أن منهم في بعض مهامه وظيفة التعريف بالعبادة الباطنية كالداعي المطلق وله رتبة تعريف الحدود العلوية، والعبادة الباطنية.

وهنا نقف على نموذج من العهود الموثق التي تؤخذ على المتلقي لأسرار التأويل وعلوم الباطن، وهو عهد ابن منصور اليمن على أحد المتلقين: "وإني يا أخي آخذ عليك عهد الله وميثاقه، وأشدّ ما أخذ الله على أنبيائه ورسله دائما، من عهد مؤكد وميثاق مشدد، وأحرّم عليك ما حرّم الله على أنبيائه ورسله وأبوابه وحججه...أن تذيعه، ولا يقرأه غيرك ولا تلفظ به لأحد من ولد آدم ولا تكتبه لأحد، إلا لمستحق مؤمن محقق فإن تعديت وفعلت غير الذي آمرك به وأذعته، فقد برئ الله منك ورسوله ووصيه، وسلط الله عليك سيف الحق ينفذ فيك حكمه ولو كره المشركون "[٢٦].

عند دراسة وتحليل سبب السرية في تحرم إذاعة المعارف الباطنية والتأويلية إلا للمستحق المتوفرة فيه شروط محددة، في ذلك يمكن ذكر الاحتمالات التالية:

١- أنها من باب التقية السياسية، أي الخوف والخشية من السلطة السياسية المخالفة والمتربصة بالدعاة، والتي لن تتورع عن البطش بهم في حال اكتشاف أمرهم، بالتالي لا بد من السرية في الدعوة، والتحفظ عن الحديث العلني حول ما يعتقدون به.
٢- تقية علمية، من الممكن أن تكون هذه السرية عائدة لأسباب علمية؛ تتمثل في الخوف من اطلاع العلماء المخالفين على مقولاتهم صريحة واضحة؛ فيبادروا إلى نقضها ودحضها مما يؤثر على انتشار الدعوة.
٣- أنهم مأمورون بالسرية حكما دينيا صادرا عن الوحي أو عن النبي والأئمة(ع)، فيكون الستر حكما شرعيا مفروضا لا يجوز لهم تعديه، فهم يلجؤون إلى السرية تعبدا وطاعة للشرع المقدس.

٤- نوع وطبيعة هذه المعارف يوجب ويستلزم صونها عن غير المستحق؛ فإذاعتها لمن لا لا يمكنه إدراكها وفهمها قد تؤدي به إلى الضلال أو إلى إساءة الظن بأصحابها لمخالفتها للمشهور والمتعارف عليه بين المسلمين من طبيعة ومادة المعارف الإسلامية.

٥- أن يكون السبب وكما يتهمهم خصومهم هو إضفاء عنصر من التشويق والجذب على هذه المعارف؛ فحينما تحاط بهذا المقدار من السرية ويتم تحذير المتلقين من إذاعتها وإفشائها فذلك يضفي عليها طابع الأهمية ويوحي بصدقها وسموها إذ أنها لا تتاح للجميع.

وهذه الاحتمالات ليست من باب الحصر العقلي؛ فقد يكون هناك احتمالات وأسباب أخرى، وقد تكون علل السرية وبواعثها واحدا من الاحتمالات الآنفة الذكر أو بعضها أو جميعها.

النتائج:

فيما يلي نلخص النتائج المستخلصة من الدراسة العامة لنظرية التأويل عند الإسماعيلية:

١- نظرية الظاهر والباطن والتأويل ركن محوري وركيزة أساسية في بنيان العقيدة الإسماعلية؛ بحيث لو سلبنا هذه المقولة عن المذهب لفقد هويته ولم يبقى له ما يميزه عن غيره من المذاهب إلا أمور يسيرة.

٢- اهتمام الإسماعيلية بالباطن لا يعني إهمالهم للظاهر فالأساس والحق في عقائدهم الإيمان بالظاهر والالتزام به في العمل والنظر، ومن يقول بخلاف ذلك يعدّ منحرفا عن جادة الصواب في المذهب كما بين وأكدّ كبار دعاتهم.

٣- لم يتمكن حكماء الإسماعيلية ودعاتها من تقديم أدلة وبراهين قاطعة في إثبات النوع الخاص من التأويل الذي يقولون به، وما جاؤوا به براهين لا يثبت إلا ما يعتقده أكثر المسلمين في هذا الباب.

٤- السرية في المعرفة الباطنية ميزة واضحة اتسمت بها الدعوة الإسماعيلية، وهي تعود لعوامل عدة راجعة إلى طبيعة المذهب وطبيعة الظروف السياسية الاجتماعية

الفكرية التي أحاطت بنشوئه وتطوره.

٥- المعرفة الباطنية معرفة وحيانية نابعة من نوع خاص من العلم يختص به الأئمة ولا يمنح للآخرين إلا بقدر معلوم وبشروط خاصة، وهذا كما يقولون راجع إلى حقيقة هذه المعارف التي لا يقدر كل عقل على استيعابها، وليس من صلاح الدين نشرها نشرا عاما يلا قيد بين عموم الناس.

هوامش البحث

(١) . مصطفى غالب، تاريخ الدعوة الإسماعيلية، صص ٤١-٤٢.
(٢) . لسان العرب، ج١١، ص ٣٢.
(٣) . الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن،، ص ٩٩.
(٤) . العلامة الطباطبائي، تفسير الميزان، ج ٣، ص ٤٩.
(٥) . دفتري، معجم التاريخ الإسماعيلي، ص١١٠-١١١.
(٦) .. مصطفى غالب، الحركات الباطنية في الإسلام، ص ٩٢- ٩٣.
(٧) . عارف تامر، مقدمة كتاب أساس التأويل، ص ٤
(٨) . جعفر السبحاني، بحوث في الملل والنحل، ج٨،ص٨.
(٩) . مصطفى غالب، الحركات الباطنية في الإسلام، ص٩٧.
(١٠) . انظر: ناصر خسرو، وجه الدين، ص ٨٢.
(١١) . جعفر بن منصور اليمن، سرائر وأسرار النطقاء، ص ٩٠.
(١٢) . مصطفى غالب، الحركات الباطنية، ص ١٠٣.
(١٣) . حميد الدين الكرماني، مجموعة رسائل الكرماني، ص١٥١.
(١٤) . راجع: مجموعة رسائل الكرماني، الرسالة الكافية، صص ١٤٨ - ١٥٨.
(١٥) . راجع: الكرماني، المصابيح في إثبات الإمامة، صص ٦٣ - ٧١.
(١٦) . سورة فصلت، الآية ١١.
(١٧) . حسين كامل، طائفة الإسماعيلية، ص ١٥٣.
(١٨) . مقدمة كتاب أساس التأويل ص ٦ .

(١٩) . نفسه ص ١٦.
(٢٠) . حسين كامل، طائفة الإسماعيلية، ص ١٦١.
(٢١) . مصطفى غالب، الحركات الباطنية، صص٩٣ و٩٧.
(٢٢) . سورة البقرة، الآية ١٨٩.
(٢٣) . علي بن حنظلة الوداَعي، منظومة سمط الحقائق، ص ٤١.
(٢٤) .مصطفى غالب، الحركات الباطنية في الإسلام، ص ٩٧.
(٢٥) . المصدر نفسه، ص ١٠٤.
(٢٦) . الحركات الباطنية في الإسلام، ص ١٠٤.

قائمة المصادر والمراجع

إن خير مانبتديء به القرآن الكريم

١. ابن حيّون، النعمان بن محمد، أساس التأويل، تحقيق عارف تامر، منشورات دار الثقافة- بيروت.

٢. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، ج١١، نشر أدب الحوزة، قم، ١٤٠٥هـ.ق.

٣. جعفر بن منصور اليمن، الكشف، تحقيق المستشرق رودلف شتروتمان، دار بيبليون، باريس، ٢٠٠٨.

٤. ----------، سرائر وأسرار النطقاء، تحقيق: مصطفى غالب، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م، نشر دار الأندلس

٥. دفتري، فرهاد، معجم التاريخ الإسماعيلي، ترجمة سيف الدين القصير، دار الساقي؛ بيروت؛ بالاشتراك مع معهد الدراسات الإسماعيلية، الطبعة الأولى، ٢٠١٦.

٦. الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان داوودي، نشر طليعة النور، الطبعة الرابعة، ١٤٢٩ هـ.

٧. السبحاني، جعفر، بحوث في الملل والنحل، مؤسسة الإمام الصادق(ع)، قم، الطبعة الثانية، ١٤٢٨ هـ.ق.

٨. الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج٣، نشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

٩. غالب، مصطفى، الحركات الباطنية في الإسلام، نشر دار الأندلس- بيروت.

١٠. --------، تاريخ الدعوة الإسماعيلية، دار الأندلس، بيروت، الطبعة الثانية.

١١. كامل، حسين، طائفة الإسماعيلية: تاريخها، نظمها، عقائدها، نشر مكتبة النهضة المصرية- القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٥٩ م.

١٢. الكرماني، أحمد حميد الدين، المصابيح في إثبات الإمامة، نشر مؤسسة النور للمطبوعات، الطبعة الأولى ١٤٢٩ هـ.

١٣. --------، أحمد حميد الدين، مجموعة رسائل الكرماني، تحقيق مصطفى غالب، نشر المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

١٤. ناصر خسرو، وجه دين، تصحيح: غلام رضا أعواني، نشر انجمن فلسفه ايران، ١٣٩٧ هـ. ق.

١٥. الودَاعي؛ على بن حنظلة، منظومة سمط الحقائق، حققه: عباس العزاوي، نشر المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية ١٩٥٣م.